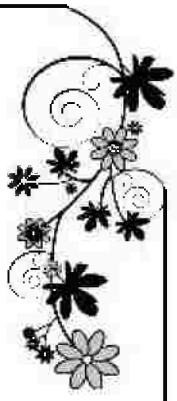

الباب الثاني

التعريف بالشواهد في كتاب «دلائل الإعجاز»

توطئة:

- أولا: الشواهد وطريقة الشيخ في الاستشهاد.
- ثانيا: أنواع الشواهد في كتاب «دلائل الإعجاز».

تـوطـئـــــــة

أولاً: الشواهد وطريقة الشيخ في الاستشهاد:

يزخر كتاب دلائل الإعجاز بالشّواهد المتنوعة من آيات قرآنية، وأبيات شعرية، وحديث شريف، وأقوال العلماء، وأمثال، وأقوال شائعة وشواهد نثرية، بالإضافة إلي الأمثلة المصنوعة التي تكتسب في الدلائل أهمية خاصة، لأنها تمثل درجة ثابتة من درجات النظم صعودا و هبوطا.

وقد اعتمد الشيخ طريقة متميزة في الاستشهاد، تدل على عظمة ذلك العالم الكبير، كما تدل على تميزه معلما، وعلى إخلاصه في قيامه بهذه المهمة، فوظف شواهده في عملية الاستشهاد مستندا إلى الخطوات الآتية:

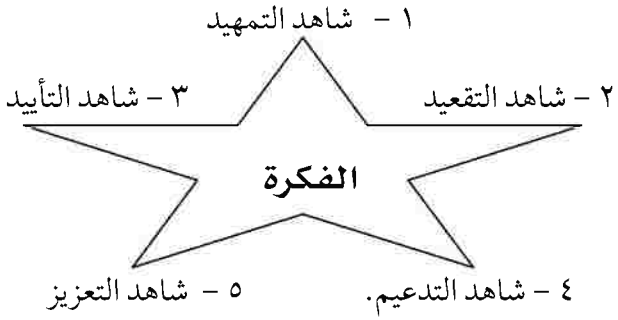

وشاهد التأييد ضروري جدا ولابد منه لإسناد التمهيد والتقعيد، فهو بمثابة اليد التي تمتد لمساعدة الوليد على الوقوف، وهذا ما تحتاجه كل فكرة وليدة من أفكار الشيخ، فهو إذا تأكد من وقوفها بنفسها على أرجلها الثلاث سارع إليها فدعمها، ثم لم يبخل عليها بأن يعززها قبل أن يتركها ويمضي إلى غيرها وهكذا والغرض من التدعيم إنما هو زيادة التقوية أما الغرض من التعزيز فهو القضاء على الشك والريبة في صحة الفكرة وجدواها.

ولمعرفة كيفية عمل هذا الأسلوب في الاستشهاد، يتطلب الأمر دراسة الشواهد بالتفصيل: أنواعها، وأهدافها، وتوظيفها.

الشواهد في الكتاب ثلاثة أنواع:

- شواهد التتويج. - الشواهد الأساسية - الشواهد الجانبية

ثانيًا: أنواع الشواهد في كتاب دلائل الإعجاز

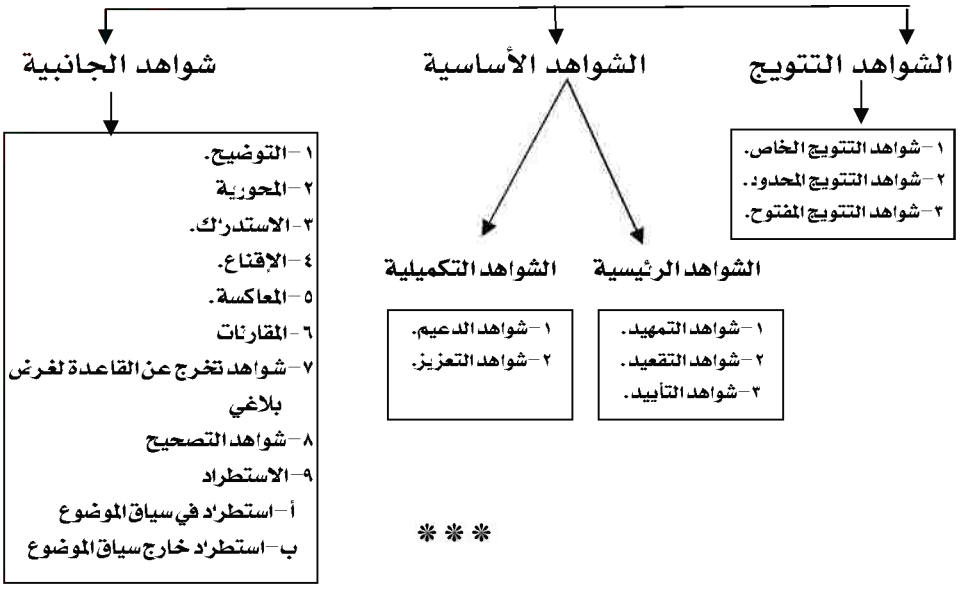

* * *

الفصل الأول

شـــــــواهد التتويج

- **فكرة التتويج.**
- **المقصود بالتتويج.**
- **أنواع التتويج في كتاب: مدونة الشواهد الشعرية من الجاحظ إلى الجرجاني لمراد بن عياد.**
- **كيف برزت فكرة التتويج؟**
- **درجات التتويج في كتاب «دلائل الإعجاز».**

* الدرجة الأولى: درجة التتويج الخاص، وتنحصر في النص المعجز.

* الدرجة الثانية: درجة التتويج المحدود في الإبداع البشري شعرا ونثرا.

* الدرجة الثالثة: درجة التتويج المفتوح في الإبداع البشري شعرا ونثرا.

- **خصائص الشواهد في كل درجة من درجات التتويج.**

فكرة التتويج

وردت فكرة التتويج في الأصل – وعلى حد علمي – في مدونة الشواهد[١]، فما المقصود بالتتويج؟ وماذا يقصد صاحب المدونة بهذا المصطلح؟ وكيف توصل إلى ابتكاره؟

المقصود بالتتويج

التتويج في اللغة هو إلباس التاج، **قال** في مختار الصحاح في مادة: (ت و ج): «التاج: الإكليل، و«توَّجَهُ فَتَتَوَّجَ» أي ألبسه التاج». [٢]

قال صاحب المدونة: «ولا يخفى أن **مرحلة التتويج** إنما هي في ظهور نتائج التقويم وحصيلة التعيير» [٣]

وقال أيضا: «فالاستشهاد في كتب البلاغة عملية هامة دقيقة في ذاتها، ولكنها لا تتم إلا **بالتتويج** وتتويجها إنما هو في تقدير قيمتها الجمالية» [٤]

فالتتويج على هذه الحال هو بلوغ الشاهد البلاغي درجة من الجمال تمكنه من بلوغ المرتبة النهائية في الفوز، حيث لا مرتبة بعدها، ومن يبلغها يكون من حقه أن يلبس التاج، إقرارا له بهذه المنزلة التي لا يشاركه فيها أحد، كما هو مشاهد من حال الملوك، وحال الفائزين في المسابقات التي تعتمد عملية التتويج لإظهار النتائج وتقرير المراتب.

ولكن تبقى المعضلة هنا في عدم الاتفاق، بل والاختلاف الشديد حول مكمن المزية

(١) مدونة الشواهد في الثراث البلاغي العربي من الجاحظ إلى الجرجاني/ مراد بن عياد.
(٢) مختار الصحاح مادة ت و ج ص ٨٠.
(٣) مدونة الشواهد ٢/ ٢٠٦.
(٤) المصدر نفسه ٢ / ٤٤١.

الذي بموجبه يستحق هذا الشاهد أو ذاك أن يبلغ مرتبة التتويج. فمثلا في كتاب «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني» وهو كتاب مشهور، نجد ثلاثة آراء متباينة في مكمن المزية:

- فالرماني ينسب المزية للبلاغة، بل للوجه البلاغي خاصة.

- والخطابي ينسب المزية للعلم بالألفاظ خاصة، ومعرفة التفريق بين استعمالاتها.

- وعبد القاهر الجرجاني ينسب المزية للنظم المشتمل إما على المجاز، وهذا قد حاز المزية في لفظه – أي بسبب مجازه – وإما على معاني النحو، وهذا قد حاز المزية في نظمه. وقد يشتمل النظم على المزيتين معا وهذا أرقى الأنواع عنده. (١)

وبنظرة عجلى إلى الأبيات:

ولما قضينا من منى كلّ حَاجةٍ ومسَّحَ بالأرْكَانِ من هو ماسِحُ
وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهَارَى رِحَالُنَا ولا يَعْلَمُ الغَادِي الذي هو رَائِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بيننا وسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

نحصل على أفضل نموذج يبين هذا الاختلاف الذي ذكر أعلاه. (٢)

---

(١) لم يوضح الشيخ أنواع هذا النظم في الرسالة الشافية، ولكنه وضحه في كتاب دلائل الإعجاز ص ٩٨ وما بعدها.

(٢) فابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، تناولها في الشعر والشعراء، وجعلها تحت الضرب الذي حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا، ثم علق على الأبيات بعد أن استعرضها بقوله: «وهذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج، ومطالع، ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان، وعالينا إبل الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطي في الأبطح.»: الشعر والشعراء ص ١٠. وأما ابن طباطبا العلوي ت ٣٢٢ هـ، فقد جعلها تحت عنوان: «الشعر الحسن اللفظ الواهي المعنى» فقال: ومن الأبيات الحسنة الألفاظ، المستعذبة الرائقة سماعا، الواهية تحصيلا ومعنى، وإنما يستحسن منها اتفاق الحالات التي وضعت فيها، وتذكر اللذات بمعانيها، والعبارة عما كان في الضمير منها، وحكايات ما جرى من حقائقها، دون نسج الشعر وجودته، وإحكام رصفه وإتقان معناه«عيار الشعر ص ١١٩، ثم استعرض عددا من الشواهد التي ينطبق عليه الحكم السابق ثم أضاف: «فالمستحسن من هذه الأبيات حقائق معانيها الواقعة لأصحابها الواصفين لها دون صنعة الشعر، فأما قول القائل.....فاستعرض الشاهد المذكور ثم وصفه قائلا: «هذا الشعر هو استشعار قائله لفرحة قفوله إلى بلده، وسروره بالحاجة التي وصفها، من قضاء حجه وأنسه برفقائه، ومحادثتهم، =

=ووصفه سيل الأباطح بأعناق المطي كما تسيل بالمياه. فهو معنى مستوفى على قدر مراد الشاعر ، وأما المعرض الحسن الذي ابتذل على ما لا يشاكله من المعاني فقول كثير :

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وُطِّنت يوما لها النفس ذلت

قد قالت العلماء : لو أن كثيرا جعل هذا البيت في وصف حرب لكان أشعر الناس» المصدر نفسه ص ١٢٠ – ١٢١ . وجعلها **قدامة بن جعفر** (ت ٣٣٧ هـ) ضمن مجموعة من الشواهد تحت عنوان : «نعت اللفظ» ، وهو بذلك يكون قد حدا بشأنها حدو ابن قتيبة ، قال قدامة عن اللفظ : أن يكون سمحا ، سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، مثل أشعار يؤخذ فيها ذلك وإن خلت من سائر النعوت للشعر«نقد الشعر ص ٧٤ تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي. **وذكرها أبو هلال العسكري** (ت ٣٩٥ هـ) في الصناعتين وقال معلقا عليها : «وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى ، وهي رائقة معجبة ، وإنما هي : ولما قضينا الحج ومسحنا الأركان وشدت رحالنا على مهازيل الإبل ، ولم ينتظر بعضنا بعضا جعلنا نتحدث وتسير بنا الإبل في بطون الأودية» ص ٥٦ . ولم يخالف **الباقلاني في إعجاز القرآن** (ت ٤٠٣ هـ) رأي كل من ابن قتيبة وقدامة بن جعفر ، وابن طباطبا ، وأبي هلال ، فاستشهد بالأبيات وقال : «وهذا من الشعر الحسن الذي يحلو لفظه وتقل فوائده ، ثم أضاف معلقا عليها : هذه ألفاظ بديعة المطالع والمقاطع ، حلوة المجاني والمواقع ، قليلة المعاني والفوائد» إعجاز القرآن ص ٢٢١ – ٢٢٢. واستمر الحال بهذه الأبيات إلى = = أن تناولها **ابن جني في الخصائص** (ت ٣٩٢ هـ) ، ورفع عنها بعض ما أصابها من استنقاص. عقد ابن جني في الخصائص بابا سماه : «باب في الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني» فقال : «فإن قلت فإنا نجد من ألفاظهم ما قد نمقوه ، وزخرفوه ووشوه ودبجوه ، ولسنا نجد مع ذلك تحته معنى شريفا ، بل لا نجده قصدا ولا مقاربا ، ألا ترى إلى قوله.....فذكر الأبيات ، فقد ترى إلى علو هذا اللفظ ، ومائه ، وصقالة وتلاحم أنحائه ، ومعناه ما تحسه وتراه إنما هو : لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين ، وتحدثنا على ظهور الإبل ، ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ رفيعتها ، مشروفة المعاني خفيضتها» الخصائص ج١ ص ١٩٠ – ١٩٣ ، فقال معارضا للآراء السابقة : «قيل هذا الموضع قد سبق إلى التعلق به من لم ينعم النظر فيه ، ولا ارى ما رآه القوم منه وإنما ذلك لخفاء طبع الناظر ، وخفاء غرض الناطق» الخصائص ج١ ص ١٩٣ ، ثم أخذ في تحليل ما في تلك الأبيات من المعاني إلى أن بلغ موضع الاستعارة في قوله : * **وسالت بأعناق المطي الأباطح** * ، فقال : «نعم ، وفي قوله : «وسالت بأعناق المطي الأباطح» من الفصاحة ما لا خفاء به ، والأمر في هذا أسير وأعرف وأشهر». المصدر نفسه ج١ ص ١٩٤ – ١٩٥ .

. وكذلك تناولها **القاضي الجرجاني في الوساطة** ت ٣٩٢ هـ ، واستعرض معها عددا كبيرا من الاستعارات المماثلة ، (من ص ٣٥ إلى ص ٣٩) ، و قرنها بعالي الاستعارات لزهير ولبيد قائلا : فإذا جاءتك الاستعارة كقول زهير : «**وعري أفراس الصبا ورواحله**»

وقول لبيد : «**إذ أصبحت بيد الشمال زمامها**»

وقول ابن الطثرية : **أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح**

فقد جاءك الحسن والإحسان ، وقد أصبت ما اردت من إحكام الصنعة وعذوبة اللفظ«الوساطة ٣٩ . وذكرها **ابن الأثير في المثل السائر** ت ٦٣٧ هـ ، بكلام يكاد يكون منقولا برمته من الخصائص. انظر : المثل السائر ١/ ٣٤٠ وما بعدها. وذكر في معاهد التنصيص أن الأبيات قد تناولها أيضا : أبو علي القالي في ذيل الأمالي ، وكذلك الشريف المرتضى في أماليه ، ولم أستقصها في جميع المواطن مخافة مزيد من التطويل. معاهد التنصيص ٢/ ١٣٤. =

أنواع التتويج في كتاب مدونة الشواهد

أطلق صاحب المدونة مصطلح التتويج، وقصد به إلى ثلاثة أمور:

الأول: الشاهد البلاغي: الذي تظهر نتائج التقويم أن لا شاهد أفضل منه، في الوقت الذي تم تقويمه فيه، باستثناء مرتبة الإعجاز في لغتنا العربية، التي ثبت عجز العرب الفصحاء عن بلوغها، وغيرهم أعجز منهم.

الثاني: النظم: باعتباره المحصلة النهائية لعملية الإبداع، يقول صاحب المدونة: «النظم مسألة في البلاغة تعتبر من أدق المسائل في النظرية الأدبية العربية، وأقربها إلى النظام ككل، وربما أولاها بتمثيل النسق البلاغي باعتبارها مظهرًا عتيدا منه؛ بل إن النظرية الأدبية – في المسار البلاغي كله – قد تطورت نحو إرساء أنساق النظم، بوصفها وجها متميزا من وجوه التتويج في هذه النظرية» (١)

الثالث: شواهد الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وقد قسم صاحب المدونة شواهد البلاغة إلى مجموعتين كبيرتين:

– **المجموعة الأولى**: شواهد الجاحظ، التي اعتبرها صاحب المدونة قاعدة انطلاق في عالم الشواهد الأدبية عموما، والبلاغية على وجه الخصوص.

– **المجموعة الأخرى**: شواهد الشيخ عبد القاهر في الأسرار والدلائل، التي عدها الطرف الآخر من الشواهد، إذ كان قد عد شواهد الجاحظ هي الطرف الأول. وبالفعل،

=ووصل الأمر إلى الشيخ عبد القاهر الجرجاني فتناولها في أسرار البلاغة، وأعلى من شأنها كما فعل القاضي الجرجاني في الوساطة، ووضح سر جمالها قائلا: «كلا ليس هذا بقياس الشعر الموصوف بحسن اللفظ، وإن كان لا يبعد أن يتخيله من لا ينعم النظر، ولا يتم التدبر، بل حق هذا المثل أن يوضع في نصرة بعض المعاني الحكمية والتشبيهية بعضا، وازدياد الحسن فيها بأن يجامع شكل منها شكلا، وأن يصل الذكر بين متدانيات في ولادة العقول إياها، ومتجاورات في تنزيل الأفهام لها» أسرار البلاغة تحقيق شاكر ص ٢٤. ثم جعلها من أعلى النماذج في دلائل الإعجاز.

(١) مدونة الشواهد ٢/ ٣٦٧

فكما اعتمد اللاحقون للجاحظ على شواهده في مؤلفاتهم، فقد اعتمد اللاحقون للشيخ عبد القاهر الجرجاني على شواهده في مؤلفاتهم.

قال صاحب المدونة: «وتبعا لما تقتضيه حدود المدونة المرسومة في عملنا فإننا نخوض في مسألة النظم والنظام من موقع جهاز الاستشهاد بناء على تساؤلين: الأول يكون بمثابة قاعدة الانطلاق. **والثاني يكون موضع التتويج**». [١]

ونظرا لما وصف به صاحب المدونة شواهد الشيخ من أنها **شواهد تتويج** لما قبلها، فقد تحدث أيضا عن التتويج الحاصل في داخل منظومة الشواهد لدى الشيخ فقال:

> إن الجرجاني في «الدلائل» يصدر عن خطة محكمة دون شك، إذ يعمد إلى إثبات عينات من مخاطبات منجزة فعلا ينتقيها انتقاء، فيهيء لها إطار استحضار يناسبها، ثم يقترح إمكانات أخرى لنظم نفس الشيء المقصود نظمه، وتلك الإمكانات بدورها تجره إلى اقتراح أطر استحضار تدعم تلك الإمكانات وتؤازرها، ثم يحمل ذلك على الآيات القرآنية المقترحة في سياق العرض **كمرحلة تتويج** لما أنجز من النظم؛ ولما كان محتملا منه»[٢].

وقال في موضع آخر متحدثا عن صنيع الشيخ في الدلائل: «فتراه أحرص ما يكون في «الدلائل» على تجريب المناهج، واختبار السبل، والكيفيات التي يمكن بها **التتويج في مستوى أم المزايا في القرآن**» [٣].

أما عن تتويج الشاهد القرآني، فقد ورد **قوله** في المدونة: «في حين أن الآية في «الدلائل» تتنزل في مستوى **حلقة التتويج** بالنسبة إلى سائر عناصر الاستحضار» [٤].

وقال أيضا: «أضحت طريقته في استدعاء المواد، وكيفية تنضيدها في النص، من أخص

---

(١) مدونة الشواهد ٢/ ٣٦٧
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٤٢٦
(٣) المصدر نفسه ٢/ ٢٨٤
(٤) المصدر نفسه ٢ / ٢٨١

خصائص التصنيف البلاغي، كما تقررت على يده، **وصار المقوم الاستشهادي فيما أنتجه الرجل عاملا أساسيا في تخليص «مرحلة التتويج» من المأزق الذي كادت تتردى فيه»** [١].

ماذا يقصد صاحب المدونة بالمأزق الذي كادت الشواهد أن تتردى فيه، وكيف خلصها الشيخ من هذا المأزق؟. هذا ما يمكن أن يجيب عنه السؤال التالي.

كيف برزت فكرة التتويج؟

برزت فكرة التتويج من طريق التتبع التنازلي لمؤلفات الإعجاز، وعقد المقارنات بينها، لأن تلك المؤلفات كان من المتوقع أن تحدد درجة المعجز وتبين خصائصها.

وبدأ صاحب المدونة **بالرماني** الذي جعل للكلام سلما من ثلاث درجات، دنيا للمتنافر ، ووسطى لكلام البشر المتلائم ، وعليا للكلام المعجز، ولكن الرماني لم يوظف من الشواهد القرآنية ما يدعم به هذه المرتبة التي وضع فيها النص المعجز، **يقول** صاحب المدونة: «فبقيت هذه الطبقة في نظرنا مفترضة ما دامت تحتاج إلى التطبيع بالأمثلة النصية، والتطبيقات الفورية، وكان القارئ ينتظر منه أن يبرز على وجه التجسيم مرتبة التحول من درجات التلاؤم في نماذج الأشعار المقررة عند الجاحظ إلى المعجز في أعلى طبقة؛ لكن ذلك لم يحصل في نص الرسالة فبقيت هذه الحلقة شاغرة في سياق العرض» [٢].

ولم يبق الرماني حلقة المعجز في نظر صاحب المدونة شاغرة فقط، ولكنه سجل عليه الانتكاس أيضا **بقوله**: «وفي الموضع الذي يتوقع فيه القارئ حلول نماذج الآيات من جهة إبراز هذه الدرجة المتميزة، المتصورة من التلاؤم، يقترح المؤلف آيات تنطق بالتحدي، وهذا مظهر من مظاهر الانتكاس، ووجه من وجوه التخلي عن طلب الإعجاز، من جهة خصائص النص، وعودة منه إلى التمسك بما تقوله الآيات بصريح مضمونها، لا بما تنجزه

(١) مدونة الشواهد ٢/ ٢١٤
(٢) المصدر نفسه ٢/ ٣٠٣

في مستوى سلسلة الخطاب من مميزات صوتية وبيانية». [١]

وأضاف صاحب المدونة واصفا صنيع الرماني في رسالته: «فإنه لم يتوصل إلى بناء المرتبة النقدية التي هي الداعي الأساسي الذي عليه ينعقد تأليف الرسالة كلها، والحال أن بناء نسب التفاضل يعد منهجيا من أوكد المداخل التي منها تتحدد المرتبة المعجزة المفترضة.....**فلم يبلغ تفحص ملامح الجمال في الآيات مستوى التتويج المنتظر**» [٢].

ويضيف:

> لكن المحير في نتائج عمله في المستوى التقويمي أن الغموض ما فتئ يعتِّم على المرتبة المعجزة بالقياس إلى مراتب أخرى من البلاغة تعود إلى منجزات معينة في الأدب، **فكل هذه المراحل في نظرنا لم تكن كافية للوصول إلى مرحلة التتويج**، ولا يمكن أن يعول المؤلف على الفارق بين وجه الاستعارة في الآية، ووجه الحقيقة في الاستعمال العادي، للكشف عن المرتبة المعجزة، والسبب في نظرنا يعود إلى كون الآيات في سياق العرض لم تنفتح على دوائر الاستشهاد قصد تطعيم أوجه النظر فيها بفضل التوسع في المقارنات، بالإضافة إلى كون مجرد التركيز على وجه الميز بين مستوى المجاز، ومستوى الحقيقة، ليس هو الكفيل بالكشف عن القدر المعجز من الخطاب، لأنك تجد في المخاطبات البشرية ما يستقيم فيه وجه الميز بين ذينك المستويين» [٣].

ثم يطلق النتيجة قائلا: «لم يتوصل المؤلف في ذلك إلى الكشف عما يكون به الإعجاز من هذه الجهة». [٤]

والجهة التي يقصدها المؤلف هي جهة التلاؤم.

ومن الرماني ينتقل صاحب المدونة إلى الإمام **الباقلاني**، فلا يجده بأفضل مما وجد

---

(١) مدونة الشواهد ٢/ ٣٠٣

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٢٠٦

(٣) المصدر نفسه ٢ / ٢٠٩

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٣٠٤

عليه الرماني، يقول صاحب المدونة:

وكنا ننتظر منه أن يقوم على الأقل بمبادرتين: **الأولى**: أن تكشف المنجزات في نصه عما لم يتوصل إليه الرماني من ربط مسألة التلاؤم الصوتي بشروط إنتاج المعنى، وبوظائف الاتصال والتلقي، وهي الحلقة المهمة التي بقيت مجرد مشروع في نص الرماني. **والثانية**: وهي الأهم أن يسد ثلمة الشغور التي كنا شخصناها في رسالة الرماني في خصوص تحديد الفاصل العملي بين المتلائم في الطبقة الوسطى، وبين الطبقة العليا القرآنية فلم يفعل، إنها بحق الحلقة المفقودة فيما بين الممكن والمعجز، بل هي في نظرنا نقطة الضعف في تطبيقات الإعجاز على أهمية المجهود الذي بذل في هذا الباب» [1].

وهذه النتيجة التي أطلقها صاحب المدونة ما كان له أن يطلقها لو أنه وضع في الاعتبار مسألة الانتماء الكلامي لهؤلاء العلماء، فكيف يحدث التكامل بين معتزلي وأشعرى، وأقصى ما يسعى إليه كل واحد منهما هو تخطئة مذهب الآخر، وتصحيح مذهبه هو، فالرماني كان يثبت الإعجاز من طريق «البلاغة» بالإضافة إلى بقية الوجوه الستة، في الوقت الذي رفض فيه الباقلاني إثبات الإعجاز من طريق البديع، ويقصد به البلاغة التي تبناها الرماني، وكان ينسب الإعجاز للنظم من جهة اللغة، وهو يشبه في ذلك مذهب الخطابي، فالتكامل على هذا الفهم لا يمكن تصوره بين أشعري ومعتزلي من هذه الجهة.

ثم انتقل صاحب **فكرة التتويج** إلى **ابن سنان الخفاجي**، وكتابه سر الفصاحة، فلم يجده بأفضل ممن سبقه، بل سجل عليه انتكاسة مغايرة ، ومن نوع آخر، عندما وجده لا يفسر الإعجاز لا بالنظم كما هو الحال عند الباقلاني، ولا بالبلاغة كما هو الحال عند الرماني، ولكنه يعزو الإعجاز للصرفة، ومفادها أن العرب قد سلبت العلوم التي كانت تمكنها من معارضة القرآن لو أنها لم تسلب منها علومها!

يقول صاحب المدونة:

---

(١) مدونة الشواهد ٢/ ٣٠٤.

ورغم ما أبداه ابن سنان من رغبة في الرد والنقاش، دون إرادة منه في توسيع دوائر الاستحضار في هذا المجال؛ **فإن حلقة الشغور بقيت قائمة لم تنجز**، ولم يتوصل ابن سنان إلى سد الفراغات على صعيد الإجراء، بل بالعكس من ذلك **نراه سجل ارتدادا وانتكاسا ملحوظا** بالنسبة إلى نظيريه الجاحظ والرماني؛ فمقابل رفضه للمتلائم في الطبقة العليا كمستند في إقرار الإعجاز، نراه يعود من جديد إلى التمسك بمبدإ الصرفة، فكنا نتصور أن تؤدي نقاشاته الحادة التي لم تكن فيها هوادة إلى اقتراح بدائل في إجراءات الاستدلال حول ما يفترض من مظاهر البينونة، لكنه مقابل ذلك يقرر بكل اطمئنان قوله: وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته؛ بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك، وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب إليه من أن بين تأليف حروف القرآن، وبين غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم.[1]

وبالانتهاء من رأي ابن سنان يكون المؤلف قد وصل إلى الشيخ عبد القاهر الجرجاني حيث تبلورت فكرة التتويج.

وانطلاقا من فكرة التتويج هذه، وهي فكرة رائدة تستحق الاهتمام؛ إذ بها يمكن العمل على توحيد المقاييس والمعايير التي يمكن من طريقها إصدار الأحكام النقدية بسبب الاحتكام إلى معايير محددة. وانطلاقا من هذه الفكرة توصل هذا العمل إلى تحديد درجات التتويج في الدلائل.

***

(١) مدونة الشواهد ٢/ ٣٠٧.

درجات التتويج في كتاب «دلائل الإعجاز»

التتويج في الدلائل ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: درجة التتويج الخاص:

وهي مستحقة للنص المعجز المتمثل في كلام رب العالمين، وهو القرآن الكريم، وإنما استحق القرآن الكريم هذه الدرجة بسبب عجز البشر عن الإتيان بمثله، وما زالوا عاجزين، ومن يظن في نفسه القدرة على معارضته فليعرض إنتاجه.

نماذج من شواهد درجة التتويج الخاص:

النموذج الأول: في الخبر إذا كان اسما:

قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨].

ورد هذا الشاهد في سياق حديث الشيخ عن الفروق في الخبر، وبين أن الخبر قد يكون جزءا من الجملة لا تتم الفائدة دونه؛ «كخبر المبتدأ»، وقد لا يكون جزءا من الجملة، ولكنه زيادة في خبر سابق له «كالحال». ثم أثبت فرقا آخر **فقال**: «وإذ قد عرفت هذا الفرق، فالذي يليه من فروق الخبرهو الفرق بين الإثبات بالاسم وبينه إذا كان بالفعل، وهو فرق لطيف تمس الحاجة في علم البلاغة إليه. وبيانه أنه موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء». [1]

مراحل الاستشهاد:

١ - مرحلة التمهيد:

شرح الشيخ ووضح هذا الكلام بالأمثلة المصنوعة، وهي عادة ما تمثل مرحلة **التمهيد**، فقال: «فإذا قلت: «زيد منطلق»، فقد أثبت الانطلاق فعلا له، من غير أن تجعله

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٤.

يتجدد ويحدث منه شيئا فشيئا، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: «زيد طويل»، و «عمرو قصير»: فكما لا تقصد هاهنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: «زيد منطلق» لأكثر من إثباته لزيد». (١)

هذا في الخبر إذا كان اسما، أما إذا كان الخبر فعلا، فالأمر فيه خلاف ذلك، في أنه يحدث باطراد، **قال** الشيخ موضحا هذا النوع: «وأما الفعل، فإنه يقصد فيه إلى ذلك. فإذا قلت: «زيد ها هو ذا ينطلق»، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا، وجعلته يزاوله ويزجيه». (٢).

٢ - مرحلة التقعيد:

بعد أن انتهى الشيخ من التمهيد للمسألة بالأمثلة المصنوعة، كان قد وصل مرحلة التقعيد، فوضع القاعدة بالشاهد الشعري، **فقال**: «وإن شئت أن تحس الفرق بينهما من حيث يلطف، فتأمل هذا البيت:

لا يَأْلَفُ الدِّرْهَمُ المَضْرُوبُ خِرْقَتَنَا ... لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْهَا وهو مُنْطَلِقُ

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلته بالفعل: «لكن يمر عليها وهو ينطلق»، لم يحسن». (٣).

والسبب في الحسن الذي ذكره الشيخ أن الانطلاق صفة ثابتة للدرهم، لا يتوقف مرة، وينطلق مرة، ولكنه منطلق على الدوام، وإن مر على الخرقة فلا يزيد على المرور شيئا.

٣ - مرحلة التتويج:

ولم يشأ الشيخ أن يمر بمرحلة التأييد، فيأتي بشاهد شعري آخر يدعم به هذه الفكرة، ولكنه انتقل مباشرة إلى مرحلة التتويج، بسبب وجود شاهد التتويج المناسب الذي لا

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٤.
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٤.
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٤ – ١٧٥.

يحتاج معه الشيخ إلى مزيد من الشرح والتوضيح **فقال**: «وإذا أردت أن تعتبره حيث لا يخفى أن أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿**وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالوَصِيدِ**﴾ [الكهف: ١٨]، فإن أحدا لا يشك في امتناع الفعل هاهنا، وأن قولنا: «كلبهم يبسط ذراعيه»، لا يؤدي الغرض». (١)

التعليل:

ولم يترك شيخنا – كعادته – المتلقي في حيرة من أمره يبحث عن السبب، أو يفتش عن العلة، ولكن الشيخ بادر بنفسه إلى هذا **قائلا**: «وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل، ومعنى يحدث شيئا فشيئا. ولا فرق بين «وكلبهم باسط»، وبين أن يقول: «وكلبهم واحد» مثلا، في أنك لا تثبت مزاولة، ولا تجعل الكلب يفعل شيئا، بل تثبته بصفة هو عليها. فالغرض إذن تأدية هيئة الكلب». (٢)

زيادة في التوضيح:

قال الشيخ: «ومتى اعتبرت الحال في الصفات المشبهة وجدت الفرق ظاهرا بينا، ولم يعترضك الشك في أن أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه. فإذا قلت: «زيد طويل»، و «عمرو قصير»: لم يصلح مكانه «يطول» و«يقصر»، وإنما تقول: «يطول» و «يقصر»، إذا كان الحديث عن شيء يزيد وينمو كالشجر والنبات والصبي ونحو ذلك، مما يتجدد في الطول أو يحدث فيه القصر. فأما وأنت تحدث عن هيئة ثابتة، وعن شيء قد استقر طوله، ولم يكن ثم تزايد وتجدد، فلا يصلح فيه إلا الاسم». (٣)

النموذج الثاني: في الخبر إذا كان فعلا:

قوله تعالى: ﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [فاطر: ٣].

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٥.
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٥.
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٥ .

مراحل الاستشهاد:

١ - الشيخ يلغي مرحلة التمهيد:

لما كان الشيخ قد استفاض في توضيح المسألة عند الحديث عن الخبر إذا كان اسما، فلم يشأ أن يبتدىء من التمهيد في حديثه عن الخبر إذا كان فعلا، اكتفاء بالتمهيد هناك، ولكنه أشار وذكر به قائلا: «وإذا ثبت الفرق بين الشيء والشيء في مواضع كثيرة، وظهر الأمر، بأن ترى أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه، وجب أن تقضي بثبوت الفرق حيث ترى أحدهما قد صلح في مكان الآخر، وتعلم أن المعنى مع أحدهما غيره مع الآخر، كما هو العبرة في حمل الخفي على الجلي. وينعكس لك هذا الحكم؛ أعني أنك كما وجدت الاسم يقع حيث لايصلح الفعل مكانه، كذلك تجد الفعل يقع ثم لا يصلح الاسم مكانه، ولا يؤدي ما كان يؤديه». (١)

فقد اكتفى الشيخ بهذا الشرح والتوضيح عن الإتيان بمرحلة التمهيد، فانتقل مباشرة إلى مرحلة التقعيد.

٢ - مرحلة التقعيد:

قال الشيخ: «فمن البين في ذلك قول الأعشى:

لعمري لقد لاحتْ عُيُونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوءِ نارٍ في يَفَاعٍ تَحَرَّقُ
تُشَبُّ لمقرورينَ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ على النَّارِ النَّدَى والمُحَلَّقُ (٢)

معلوم أنه لو قيل: «إلى ضوء نار متحرقة»، لنبا عنه الطبع، وأنكرته النفس، ثم لا يكون ذاك النبو، وذاك الإنكار من أجل القافية، وأنها تفسد به، بل من جهة أنه لا يشبه الغرض، ولا يليق بالحال» (٣)

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٦.

(٢) قال المحقق: «المحلق» بتشديد اللام وكسرها وبفتحها أيضا، واسمه «عبد العزى بن حنتم بن شداد بن ربيعة المجنون بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب»، وسمي «المحلق»، لأن فرسا عضه في خده عضة كالحلقة» المصدر نفسه ص ١٧٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٦.

والمعنى بالفعل يفيد استمرار اشتعال النار، وأن هناك من يزودها بالحطب مرة بعد مرة، بينما لو قال: «متحرقة»، لدل ذلك على أنها عندما ينتهي حطبها ستنتهي وتنطفيء.

قال الشيخ: «وذاك لأن المعنى في بيت الأعشى على أن هناك موقدا يتجدد منه الإلهاب والإشعال حالا فحالا، وإذا قيل: «متحرقة»، كان المعنى أن هناك نارا قد ثبتت لها وفيها هذه الصفة، وجرى مجرى أن يقال: «إلى ضوء نار عظيمة» في أنه لا يفيد فعلا يفعل». (١)

٣- مرحلة التأييد:

وكأن الشيخ قد أثبت مرحلة في نموذج وألغى أخرى، ثم استبدل ما أثبته بما ألغاه في النموذج السابق.

ففي النموذج الأول ألغى مرحلة التأييد وأثبت مرحلة التمهيد، وفي هذا النموذج ألغى مرحلة التمهيد وأثبت مرحلة التأييد، وشاهد التأييد عادة ما يتوافق مع شاهد التقعيد، وهو قول الشاعر:

أَوَكُلَّمَا وَرَدَتْ عُكَاظَ قَبِيلةٌ بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُم يَتَوَسَّمُ

المقصود في البيت قول الشاعر: «بعثوا إليَّ عريفهم يتوسم»، قال الشيخ: «وذلك لأن المعنى على توسم وتأمل ونظر يتجدد من العريف هناك حالا فحالا، وتصفح منه الوجوه واحدا بعد واحد، ولو قيل: «بعثوا إليَّ عريفهم متوسما»، لم يفد ذلك حق الإفادة. » (٢)

٤- مرحلة التتويج:

قال الشيخ: (ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ [فاطر: ٣]، لو قيل: «هل من خالق غير الله رازق لكم»، لكان المعنى غير ما أريد)(٣).

(١) دلائل الإعجاز ص ١٧٦ – ١٧٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٧.
(٣) المصدر نفسه ص ١٧٧.

والسبب أن الأرزاق من الله تعالى تتوالى على العباد حالا بعد حال، والعبد يستقبل الرزق بعد الرزق، وليست هي حالة واحدة ثابتة قد وزع علينا فيها أرزاقنا وتم الأمر، ولكن العباد في كل برهة من زمن يتلقون من الكريم سبحانه من الأرزاق ما يعجزون عن إحصائه، فرزقه نازل لهم على مدار الزمن.

النموذج الثالث: من مبحث الفصل والوصل:

هي كوكبة من شواهد التتويج وردت في مبحث الفصل والوصل، سبقتها مرحلة طويلة من التمهيد والتقعيد والتأييد، في توضيح فكرة للشيخ حول الغرض من الاستئناف، وترك العطف، وأن من أسباب ذلك هو تحرك تلك الرغبة في أنفس السامعين لأن يسألوا عن نتيجة الحكاية الواردة في بداية الحديث، فيأتي الاستئناف بمثابة الجواب عن ذلك التساؤل.

> قال الشيخ وهو يناقش أمر الاستئناف في قوله تعالى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، هذا وههنا أمر سوى ما مضى يوجب الاستئناف وترك العطف، وهو أن الحكاية عنهم بأنهم قالوا كيت وكيت، تحرك السامعين لأن يعلموا مصير أمرهم، وما يصنع بهم، وأتنزل بهم النقمة عاجلا أم لا تنزل ويمهلون، وتوقع في أنفسهم التمني لأن يتبين لهم ذلك. وإذا كان كذلك، كان هذا الكلام الذي هو قوله: «الله يستهزيء بهم»، في معنى ما صدر جوابا عن هذا المقدر وقوعه في أنفس السامعين. وإذا كان مصدره كذلك، كان حقه أن يؤتى به مبتدأ غير معطوف، ليكون في صورته إذا قيل: فإن سألتم قيل لكم: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1].

وكأن طاقة من نور العلم، وبابا من أبوابه قد فتح أمام الشيخ، فانطلق يأتي بالشاهد

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٣٥.

تلو الشاهد، تقعيدا وتأييدا وتعزيزا، إلى أن بلغ المرحلة النهائية التي جاء فيها دور شواهد التتويج فرصعها بها متوالية على النحو الآتي:

قال الشيخ: «واعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ»قال«مفصولا غير معطوف، هذا هو التقدير فيه، والله أعلم»[١]

الشاهد الأول: قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۞ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۞ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ ۞ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً**﴾ [الذاريات ٢٤ – ٢٨].

قال الشيخ:

جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال، فلما كان في العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم: دخل قوم على فلان فقالوا: «كذا» أن يقولوا: فما قال هو؟ ويقول المجيب: قال كذا. أخرج الكلام ذلك المخرج لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه. وكذلك قوله: «قال ألا تأكلون» وذلك أن قوله: «فجاء بعجل سمين فقربه إليهم» يقتضي أن يتبع هذا الفعل بقول فكأنه قيل: (والله أعلم) فما قال حين وضع الطعام بين أيديهم؟ فأتى قوله: «قال ألا تأكلون» جوابا عن ذلك. وكذا: «قالوا لا تخف» لأن قوله: «فأوجس منهم خيفة» يقتضي أن يكون من الملائكة كلام في تأنيسه وتسكينه مما خامره فكأنه قيل: فما قالوا حين رأوه وقد تغير ودخلته الخيفة؟ فقيل: قالوا لا تخف[٢]

قال الشيخ مقدما للشاهد التالي: «وذلك (والله أعلم) المعنى في جميع ما يجيء منه على كثرته، كالذي يجيء في قصة فرعون عليه اللعنة، وفي رد موسى عليه السلام عليه، كقوله:.....[٣]

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٠.

الشاهد الثاني: قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ قَالَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُم مُّوقِنِينَ ۞ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ۞ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ۞ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۞ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۞ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۞ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء ٢٣ – ٣١].

قال الشيخ: «جاء ذلك كله (والله أعلم) على تقدير السؤال والجواب كالذي جرت به العادة فيما بين المخلوقين، فلما كان السامع منا إذا سمع الخبر عن فرعون بأنه قال: وما رب العالمين؟ وقع في نفسه أن يقول: فما قال موسى له؟ أتى قوله: «قال رب السماوات والأرض» مأتى الجواب مبتدأ مفصولا غير معطوف، وهكذا التقدير والتفسير أبدا في كل ما جاء فيه لفظ «قال» هذا المجيء، وقد يكون الأمر في بعض ذلك أشد وضوحا» [(١)]

الشاهد الثالث: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر ٥٧ – ٥٨].

قال الشيخ: «فمما هو في غاية الوضوح قوله تعالى: [فذكر الشاهد ثم قال:] وذلك أنه لا يخفى على عاقل أنه جاء على معنى الجواب، وعلى أن ينزل السامعون كأنهم قالوا: فما قال له الملائكة؟ فقيل: قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين». [(٢)]

قال الشيخ: «وكذلك قوله ﷻ في سورة يس»[(٣)]:

الشاهد الثالث: قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۞ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ۞ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۞ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ۞ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤١
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤١
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤١.

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُم بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۞ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ١٣ – ٢١].

قال الشيخ: «التقدير الذي قدرناه من معنى السؤال والجواب بينٌ في ذلك كله، ونسأل الله التوفيق للصواب والعصمة من الزلل»[(١)].

الدرجة الثانية: التتويج المحدود:

أولاً: في الشعر:

وهذه الدرجة مستحقة لجنس من معاني النظم البشري، شهد العلماء لأصحابه بالتفرد في الوقوع عليه، وهو المعروف «بالمعاني العقم» وقد ذكر الشيخ هذه الدرجة من التتويج، وألمح لها وهو يجادل المخالفين في مسألة المعارضة قائلا:

> وذاك أن يقولوا: إنه لا تصح المطالبة إلا بما يتصور وجوده، وما يدخل في حيز الممكن، وإنا لنعلم من حال المعاني أن الشاعر يسبق في الكثير منها إلى عبارة يعلم ضرورة أنها لا يجيء في ذلك المعنى إلا ما هو دونها ومنحط عنها، حتى يقضى له بأنه قد غلب عليه واستبد به، كما قضى الجاحظ لبشار في قوله:
>
> **كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه**[(٢)]

فإنه أنشد هذا البيت مع نظائره ثم قال: «وهذا المعنى قد غلب عليه بشار، كما غلب عنترة على قوله:

وخلا الذباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم[(٣)]

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤١ – ٢٤٢

(٢) المصدر نفسه ص ٦٠٢.

(٣) الغرد: الذي يمد صوته ويطرب. والهزج: المتتابع الصوت. الأجذم: المقطوع الكف. شرح ديوان عنترة ص ١٥٩

قال: فلو أن امرأ القيس عرض لمذهب عنترة في هذا لافتضح «وليس ذاك لأن بشارا وعنترة قد أوتيا في علم النظم جملة ما لم يؤت غيرهما، ولكن لأنه إذا كان في مكان خبيء فعثر عليه إنسان وأخذه، لم يبق لغيره مرام في ذلك المكان، وإذا لم يكن في الصدفة إلا جوهرة واحدة، فعمد إليها عامد فشقها عنها، استحال أن يستام هو أو غيره إخراج جوهرة أخرى من تلك الصدفة. وما هذا سبيله في الشعر كثير لا يخفى على من مارس هذا الشأن. فمن البين في ذلك قول القطامي[١]:

فَهُنَّ يَنْبِذْنَ من قولٍ يُصِبْنَ بِهِ ... مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي[٢]

وقول ابن حازم[٣]:

كفاكَ بالشَّيْبِ ذنبا عند غَانيةٍ ... وبالشباب شفيعا أيُّها الرجلُ[٤]

وقول عبد الرحمن بن حسان[٥]:

لم تفتْها شمس النهار بشيء ... غير أن الشباب ليس يدومُ[١]

---

(١) **القُطامي**: ويلقب بـ«صريع الغواني» وهو عمير بن شييم التغلبي من بني بكر بن حبيب، وهم بطن من تغلب، وكان نصرانيا فأسلم. شاعر غزل فحل، جعله ابن سلام في الطبقة الثانية من الإسلاميين، ونقل أن القطامي أول من لقب «صريع الغواني» بقوله:

صريع غوان راقهن ورقنه ... لدن شبَّ حتى شاب سود الذوائب

وقال المرزباني: كان في صدر الإسلام من شعره البيت المشهور:

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

كانت وفاته سنة ١٠١ هـ. انظر ترجمته في: الشعر والشعراء ص ١٩٠، المؤتلف والمختلف ٢١٨، معاهد التنصيص ١/ ١٨٠، تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ١/ ٢٣٦، الأعلام ٥/ ٨٨، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٢/ ٥٨٦، تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين م٢ ج٣ ص ٣٧.

(٢) ينبذن: يلقين، الغلة: حرارة العطش، الصادي: شديد العطش.

(٣) **ابن أبي حازم**: هو محمد بن حازم الباهلي، وكنيته أبو جعفر، ولد في البصرة ونشأ بها، ثم سكن بغداد، كان هجاء، وقيل إنه قصر مديحه على المأمون، وعرف أيضا بشعره في القناعة وفضل الشباب على الشيب، وكذلك أكد المحقق أن اسمه هو محمد بن حازم الباهلي وكنيته أبوجعفر، قال ابن الأعرابي وذكر الشعر كله: أحسن ما قال المحدثون من شعراء هذا الزمان في مديح الشباب وذم الشيب. انظر دلائل الإعجاز ص ٦٠٣، وانظر كذلك: تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين م٢ ج٤ ص ٧١.

(٤) الغانية: الجارية التي غنيت بحسنها وجمالها. شفيعا: شفع فلان لفلان إذا جاء ثانيه ملتمسا مطلبه ومعينا له. معجم مقاييس اللغة ٣/ ٢٠١.

(٥) قال المحقق ليس لعبد الرحمن بن حسان، ولكنه لأبيه حسان بن ثابت وهو في ديوانه.

وقول البحتري:

عريقون في الإفضالِ يُؤْتَنَفُ النَّدى لِنَاشِئِهِمْ من حيث يُؤْتَنَفُ الْعُمْرُ[٢]

لا ينظر في هذا وأشباهه عارف إلا علم أنه لا يوجد في المعنى الذي يرى مثله، وأن الأمر قد بلغ غايته، وأن لم يبق للطالب مطلب.[٣]

ولم يفت حازما القرطاجني[٤] - وهو جرجاني المغرب - أن ينوه بذكر هذا النوع من المعاني، وهو يتحدث عن السرقات **قائلا**:

والمعاني التي بهذه الصفة تسمى «العقم»، لأنها لا تلقح، ولا تحصل عنها نتيجة، ولا يقتدح منها ما يجري مجراها من المعاني، فلذلك تحاماها الشعراء وسلموها لأصحابها، علما منهم أن من تعرض لها مفتضح. ألا ترى أنهم عابوا على ابن الرومي[٥] - وحظه من الاختراع الحظ الأوفر - تعرضه لقول عنترة:

---

(١) الرسالة الشافية ص ٦٠٤

(٢) عريقون : العريق من الخيل والناس : الذي له عرق في الكرم ، وفلان يعارق فلانا أي يفاخره ، ومعناه أن يقول : إننا أكرم عرقا. معجم مقاييس اللغة ٤/ ٢٨٦. الإفضال : الإحسان. يؤتنف : الاستئناف والائتناف : الابتداء ، وأنف كل شيء أوله ، وروضة أُنُف بضمتين : أي لم يرعها أحد ، كأنه استؤنف رعيها. العمر : هو الحياة ، وهو العمر أيضا ، وقول العرب : لعمرك ، يحلف بعمره أي حياته . معجم مقاييس اللغة ٤/ ١٤٠.

(٣) دلائل الإعجاز (الرسالة الشافية) ص ٦٠٢ - ٦٠٤

(٤) **حازم القرطاجني** : هو حازم بن محمد بن حسن بن حازم القرطاجني ، أبو الحسن ، ولد سنة ٦٠٨ هـ ، أديب من العلماء ، له شعر ، من أهل قرطاجنة (بشرقي الأندلس) ، تعلم بها وبمرسية ، وأخذ عن علماء غرناطة وأشبيلية ، وتتلمذ لأبي علي الشلوبين ، ثم هاجر إلى مراكش ، ومنها إلى تونس فاشتهر وعمر وتوفي بها ، ومن كتبه : سراج البلغاء ، طبع طبعة أنيقة محققة باسم «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» ، وله ديوان شعر ، وهو صاحب المقصورة التي مطلعها :

لله ما قد هجت يا يوم النوى على فؤادي من تباريح الجوى

توفي القرطاجني سنة ٦٨٤ هـ. انظر ترجمته في : الأعلام ٢/ ١٥٩ ، تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٥/ ١١٣ - ١١٤ ، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١ ٥١٩.

(٥) **ابن الرومي** : هو علي بن العباس بن جريج ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبي ، ولد في بغداد سنة ٢٢١هـ ، وكان يفخر بنسبه الرومي ، . وفن ابن الرومي يعتمد في المرتبة الأولى على العيان والمشاهدة ، فهو يلمح بالنظرة الحادة النقائص والعيوب الجثمانية على وجه الخصوص عند خصومه فيصوغها في هجاء مرير لاذع ، بيد أنه يصور بهذه النظرة اللماحة نفسها صور البهجة والحياة السعيدة كذلك. توفي ابن الرومي سنة ٢٨٣ هـ ، وقيل مات سنة ٢٨٤ هـ. انظر ترجمته في : معاهد التنصيص ١/ ١٠٨ ، الأعلام ٤ / ٢٩٧ ، تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٢/ ٤٤ - ٤٧ ، تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين م٢ ج٤ ص ١٧٢.

وخلا الذباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشارب المترنم

هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم

بقوله يصف روضة:

وغرَّدَ رَبْعِيُّ الذِّبَابِ خلالها كما حَثْحَثَ النَّشْوَانُ صَنْجًا مُشَرّعا

فكانت لها زِنْجُ الذِّبَاب هناكم على شَدَوَاتِ الطّيْرِ ضَرْبًا مُوَقّعا

على أن ابن الرومي قد نحا بالمعنى نحوا آخر، حين جعل تغريد الذباب ضربا موقعا على شدوات الطير. وهذا تخييل محرك إلى ما قصد ابن الرومي تحريك النفوس إليه، وإيلاعها به. فمثل هذه المعاني النادرة إذا وقع فيها مثل قول ابن الرومي، ووقع فيها زيادة ما من جهة، وإن كان فيها تقصير من جهة أخرى، يجب أن يصفح عن قائليها في ما وقع لهم من التقصير، إذا وقع لهم بإزاء ذلك زيادة، وإن كان ما قصروا عنه أجل مما زادوا. هذا إذا لم يكن بين المقصر عنه والمزيد تفاوت كبير. وأما من نقل المعنى النادر من غير زيادة، فذلك من أقبح السرقات، لأنه تعرض لسرقة ما لا يخفى على أحد أنه سرقة [1]

ثانيًا: في النثر:

وكما يكون هذا التتويج المحدود في الشعر، يكون كذلك في النثر، قال الشيخ:

> وكذلك السبيل في المنثور من الكلام، فإنك تجد فيه متى شئت فصولا تعلم أن لن يستطاع في معانيها مثلها، فمما لا يخفى أنه كذلك:
>
> قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: «قيمة كل امرىء ما يحسنه»، وقول الحسن[2] رحمة الله عليه: «ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت». ولن تعدم ذلك إذا تأملت كلام البلغاء ونظرت في الرسائل. ومن أخص شيء بأن يطلب ذلك فيه، الكتب المبتدأة الموضوعة في العلوم المستخرجة، فإنا نجد أربابها قد سبقوا

(١) منهاج البلغاء ص ١٩٤ – ١٩٥

(٢) هو الحسن البصري.

في فصول منها إلى ضرب من اللفظ والنظم، أعيا من بعدهم أن يطلبوا مثله، أو يجيئوا بشبيه له، فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظوا تلك الفصول على وجوهها، ويؤدوا ألفاظهم فيها على نظامها، وكما هي وذلك مثل: قول سيبويه:

- «وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت: لما مضى، وما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع».

لا نعلم أحدا أتى في معنى هذا الكلام بما يوازنه أو يدانيه، أو يقع قريبا منه، ولا يقع في الوهم أيضا أن ذلك يستطاع. أفلا ترى أنه إنما جاء في معناه قولهم: «والفعل ينقسم بأقسام الزمان، ماض وحاضر ومستقبل»

وليس يخفى ضعف هذا في جنبه وقصوره عنه. ومثله قوله:

- «كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم.[1]

الدرجة الثالثة: درجة التتويج المفتوح:

وهو ذلك الميدان المشرع للتباري والمنافسة بين البشر، ولا يجوز أن يحجر عليه أو يتوقف، بل لابد له من الاستمرار والترقي بين هاتين المرتبتين من التتويج، الثانية والثالثة، بعد أن ثبت عجز البشر عن بلوغ المرتبة الأولى. وليس معنى ذلك أن نستهين بهاتين المرتبتين، وكيف نستهين بهما وهما السبيل الوحيد للتدرب على كيفية إدراك المزية في النظم المعجز، ولولاهما لكنا نعجز عن التوصل إلى إدراك تلك المزية.

وهذه رسالة الشيخ للأمة حين أعرض عن شواهد الجاحظ، ولم يفعل ما فعله البلاغيون قبله كأبي هلال العسكري، وابن سنان الخفاجي، في اعتمادهم على شواهد الجاحظ وتبني مذهبه. فلم يرض الشيخ بهذا، لا لعيب أو قصور في تلك الشواهد، ولكنه آثر توظيف الشعر المحدث.

---

(١) دلائل الإعجاز (الرسلة الشافية) ص ٦٠٤ - ٦٠٥

خصائص شواهد التتويج

أولاً: خصائص شواهد التتويج في الدرجة الأولى:

وتتميز هذه الشواهد بالخصائص التالية:

١ – مقرها القمة، ودرجتها الإعجاز، ونوعها الشاهد القرآني.

٢ – شواهد التتويج هي عادة خاتمة الشواهد التي يجعلها الشيخ في مراتب.

٣ – تمركز الشاهد القرآني في مرحلة التتويج لا يعني أن الشيخ لم يوظفه في أغراض أخرى، ولكن إذا استدعى الأمر أن تكون الشواهد في مراتب، فإن مرتبة التتويج الخاص تكون للشاهد القرآني.

٤ – لبلوغ مرحلة التتويج، فإن الشيخ عادة ما يبدأ عملية الاستشهاد بالأمثلة المصنوعة، ثم الترقي بالشواهد الشعرية إلى أن يبلغ مرتبة الإعجاز.

ثانيًا: خصائص شواهد التتويج في الدرجة الثانية:

وهي درجة مفتوحة للتباري، غير أن التباري فيها سيكون محدودا جدا، هذه واحدة، أما الأخرى فهي الحاجة الماسة إلى الناقد النابه، والغواص الماهر الذي يجيد الغوص على المعاني، فيميز هذا النوع من غيره، ويعرف كيف يفتح الصدفة ويستخرج اللؤلؤة.

ثالثًا: خصائص شواهد التتويج في الدرجة الثالثة:

هي الأخرى درجة رفيعة ولكنها في الدرجة الثالثة بعد الدرجتين الأولى والثانية، والإبداع فيها متاح، وإنه ليتوجب علينا أن نتوجه صوب تراثنا البلاغي، الذي تغص به أرفف المكتبات لنستكشف أسراره بعد أن سلك لنا الأجداد الطريقة.

***